جوانب من الجذور الحضارية
لأساطير بلاد الرافدين وأثرها في الثقافة الأفريقية القديمة

د/ قصي منصور عبد الكريم التُركي
كلية العلوم والتربية بعقرة
جامعة دهوك -العراق

المقدمة:

إن الأدلة الأثرية (Archaeological) والانثروبولوجية (Anthropological) المتوافرة للباحثين في عصور ما قبل التاريخ، قد أثبتت بأن الإنسان قد مارس السحر خلال العصور الحجرية في ضل حياته البدائية، ومن خلال دراسة تلك الشواهد التي وصلت إلينا حول الممارسات السحرية، أصبح بإمكاننا تقصي جملة من تلك الظواهر وتعّقب استمرار وجودها بين ظهرانينا منذ الأمس البعيد وحتى يومنا هذا.

ومما لا شك فيه أن الدراسات العلمية الحديثة قد أضافت الكثير من المعلومات القيمة التي قدمها الأنثروبولوجيون وعلماء السيسيولوجيا (Sociologist) وحاولت أيضا تقديم التفسيرات المنطقية والعلمية للقوانين والممارسات السحرية والباراسايكلوجية (Para-psychological)، لأن الإنسان القديم والحديث لا يمكن أن يعتقد بممارسات لا تعتمد على المنطق، لاسيما وأن الشعوذة والدجل لا يمكنها أن تتدخل في الممارسات الإنسانية الخاصة بأهم الأمور التي كانت تؤثر في حياة الإنسان تأثيرا مباشرا. وقد صنف المختصون إبّان القرن التاسع عشر وأوائل القرن العشرين تلك الممارسات لدى شعوب القارة السمراء بأنها سحرية، بينما أكدت الدراسات الحديثة على أنها من الممارسات الباراسايكولوجية،[1] خاصة وان جذور اغلب تلك الممارسات وجدنا لها أدلة في عادات وتقاليد وممارسات مجتمعات المشرق القديم في شمال شرق القارة الأفريقية وفي شمال غرب القارة الآسيوية.

إن هذه الدراسة توضح الفرق بين القوانين السحرية وما يعرف حديثا بعلم الباراسايكولوجي، حيث أنَّ تلك القوانين تحكم سلوك المجتمعات قديما وحديثا، ويمكن أن تؤثر كل على حده. في طرق تفكير الإنسان، فإنَّ فهم هذه الأمور سوف يساعدنا كثيرا في التعرف على تاريخ وطبيعة حياة المجتمعات والأفراد وتجعلنا قادرين على الوصول من خلال إشارات بسيطة إلى نتائج ذات قيمة تاريخية لفهم التراث الذي يختزن في ذاكرة الشعوب، وبذلك نحقق الغاية التي أشار إليها المفكرون العالميون من خلال مقولاتهم ومن بينهم ما ذهب

إليه المؤرخ والطبيب الشهير"سيسرو" (MARCUS TULLIUS CICERO) (106 - 43 ق.م) عندما قال: "إذا كنت لا تعرف شيئا مما حدث قبل ولادتك، فلن تكبر أبدا"، إذن لابد من العودة إلى الأصول لمعرفة ما وصلت إليه الشعوب المعاصرة من ثقافة وإبداع.

وفي ضوء ما سبق حاولنا في هذه الدراسة رصد جوانب مميزة من الثقافة والتراث لبعض الشعوب الأفريقية ومدى تأصل جذورها في ثقافة وحضارة بلاد الرافدين، من خلال مطلبين اثنين كان اولهما يتعلق بالقوانين الخاصة بالسحر التمثيلي بشقيه التشاكلي والاتصالي، وقد زودتنا المصادر الأصيلة التي بحثنا بها عن عناصر مميزة من التراث الأفريقي وأصول مثل هذه العناصر في ثقافة سكان بلاد الرافدين. أما المطلب الثاني فقد تناولنا فيه جملة من العناصر المشتركة في الثقافتين الرافدينية القديمة وما وجدناه من عناصر مشابهة في الثقافة الأفريقية. ثم ختمنا الورقة بملاحظات اعتبرت كمحصلة للبحث، الذي نأمل أن نكون قد وفقنا في عرض أفكاره .

التمهيد:

تمتد قارة أفريقيا بين دائرتي عرض 40 و35 جنوبًا و37 شمالاً، ويفصلها عن أوروبا البحر الأبيض المتوسط وعن آسيا المحيط الهندي والبحر الأحمر. ويقسمها خط الاستواء قسمين، الجنوبي وهو أضيق من الشمالي، ومعظم القارة يقع في المناطق المدارية، وأهم هضابها الجنوبية، ومن مرتفعاتها جبال كليمنجارو وكينيا وجبال داركتربرج، وتغطي الصحراء مساحة واسعة من أراضي القارة مثل الصحراء الكبرى شمالاً وصحراء كلهاري جنوباً. وتتميز قارة إفريقيا بأكبر ظاهرة انكسارية في العالم وهي الأخدود الإفريقي العظيم. وأكبر بحيراتها بحيرة فكتوريا، وأهم أنهارها الكنغو والنيل والزامبيزي ونهر النيجر. تتدرج الحياة النباتية في إفريقيا مع المناخ من الغابات الاستوائية، إلى السفانا الغنية، إلى السفانا الزراعية، إلى السباسب، إلى الصحراء. وتعتمد الزراعة فيها على الأمطار والريّ.[2]

ينتمي سكان إفريقيا إلى أربع مجموعات عرقية هي: البوشمن، والهوتنتوت، والأقزام، والزنوج، وهي العناصر القديمة، اضافة الى الحاميون، والشعوب الزنجية السامية، ثم العناصر السامية العربية، وقد وجدت في القارة أقدم الحضارات في العالم وهي الحضارة الفرعونية.[3]

إنّ الأديان الإفريقية التقليدية تنتمي في معظمها إلى صنف الأديان المتعددة الآلهة، وذلك ما تتميز به المجتمعات ما قبل الطبقية، فالأشخاص الخارقون في هذه الأديان هم أرواح مختلفة (بما في ذلك أرواح المكان وأرواح الأجداد، وأرواح ظواهر الطبيعة ...الخ) ولكنهم ليسوا آلهة، إنّ الأديان المتعددة الآلهة هي من صفات المجتمعات الافريقية الاولى[4]، وهي بذلك تشترك مع اولى المجتمعات الحضارية المتشكلة في المنطقة العربية الا وهي حضارة وادي الرافدين والنيل حيث اتصفت ديانتها ومنذ بدايتها بمبدأ تعدد الآلهة وتشبيه الافراد بالالهة خاصة الملوك[5]،

ومن المعروف ان في مواطن حضارات إفريقيا الغربية (السودان الغربي والأوسط، ومنطقة خليج بنين) وما بين البحيرات (يوغندا) قامت أديان تجسد الإله في عدد من الأشخاص. وبشكل عام فان الأديان الإفريقية التقليدية، سواء أكانت المتعددة الآلهة أم تلك التي جسدت الإله في شخص واحد، لم تكن مناسبة تماماً لنظام يملي تعاليمه الروحية على أفراد المجتمع الواحد في إفريقيا قديما، بل ان الممارسات السحرية هي الصفة الغالبة على سلوك المجتمعات عموما سواء في الحضارات الآسيوية (المجتمعات العربية) أو الأفريقية.

المطلب الأول: القوانين الخاصة بالسحر التمثيلي:

إن الشواهد الآثارية المتوفرة للباحثين لفترة عصور ما قبل ظهور الزراعة في الشرق الادنى القديم بينت ان الإنسان قد مارس السحر منذ بداية تكوّن المجتمعات في العصور الحجرية، ومن خلال دراسة تلك الشواهد التي وصلت إلينا حول الممارسات السحرية، أصبح بإمكان الباحث الانكليزي "سير جيمس فريزر" دراستها ومن ثم نشرها في كتابه المشهور "الغصن الذهبي".[6]

ومما لا شك فيه أن الدراسات العلمية قد أضافت الكثير إلى المعلومات القيمة التي قدمها "سير جيمس فريزر" وحاولت أيضا تقديم التفسيرات المنطقية والعلمية للقوانين التي قام بتحديدها، لأن الإنسان القديم والحديث لا يمكن أن يساعد نفسه بممارسات لا تعتمد على المنطق، ولأن الشعوذة والدجل لا يمكنها أن تدخل في الممارسات الإنسانية الخاصة بأهم الأمور التي كانت تؤثر في حياته تأثيرا مباشرا. وفضلا عن ذلك فإن هناك العديد من الممارسات التي صنفها الأستاذ "فريزر" ضمن الممارسات السحرية المرتبطة جذورها بالعادات والتقاليد والارث الثقافي بينما كدت الدراسات الحديثة على أنها من الممارسات الباراسايكولوجية[7].

ولذلك فان الغاية من هذه الدراسة هي أن نوضح الفرق بين القوانين السحرية التي تؤثر في سلوك المجتمعات وعاداتها وتقاليدها داخل حدودها الجغرافية ومدى ارتباطها وتأثرها وتأثيرها في مجتمعات الحضارات الاخرى قربت أَم بعدت في الزمان والمكان. وكيف يمكن أن تؤثر هذه القوانين على الإنسان العربي والافريقي من حيث الثقافة والتراث؟ لأن فهم هذه الأمور سوف يساعدنا كثيرا في التعرف على أحداث التاريخ المتعلق بالتقارب الايجابي الثقافي بين المجتمعات ويجعلنا قادرين في أن نصل من إشارات بسيطة إلى نتائج ذات قيمة تاريخية.

ولكي لا نطيل في تمهيدنا الخاص بالدخول إلى الموضوع نعتقد بأن من أبرز القوانين السحرية التي اعتمد عليها الإنسان القديم في سير حياته والتي اعتمدنا عليها في هذا المطلب للوقوف على جذور الثقافة الافريقية المتأصلة في ثقافة حضارة بلاد الرافدين قديما، الآتي:

أولا- قانون التشابه:

من خلال الأعمال الفنية للإنسان والتي بدأ ظهورها في حياته منذ حوالي ثمانين ألف سنة، تبين لنا أن أفكاره كانت تبحث عن سر الحياة والممات وعن ما هو ممكن لمساعدة حياته. وقد

تجسدت هذه الأفكار واضحة من خلال ممارساته السحرية الموثقة برسوماته التي تركها على جدران الكهوف التي سكنها، حيث أن تلك الرسوم قد بينت لنا أولى أفكار الإنسان السحرية التي اعتمدت على مبدأ مفاده أن المعلول يشبه علته وان الشبيه ينتج شبيهه،[8] ولذلك وافق المختصون على تسمية هذا المبدأ بقانون "التشابه" او قانون "السحر التشاكلي".[9]

وقانون التشابه هذا كما يثبت ذلك الواقع لم ينشأ لدى الإنسان نتيجة للشعوذة أو الدجل، وإنما اعتمد على ملاحظاته للطبيعة من حوله، حيث بينت له تلك الملاحظات بان الكائنات الحية لا تلد إلا الشيء الذي يشبهها، وكذلك الحال بالنسبة للجمادات، فهي لا تقدم للإنسان إلا ما يماثلها، فمورد الماء الصافي لا يعطي إلا ماءً صافيا والمورد الكدر لا يعطي إلا ماءً كدرا. والشيء نفسه مع بقية الأشياء الجامدة الأخرى. وهذه الحقيقة جعلت الإنسان يعتقد بأنه قد اكتشف سر الحياة. وبدأ يؤمن بانه يستطيع أن يحصل على ما يريد إذا ما قام بعمل شبيهٍ للشيء الذي يبتغيه ويحصل من هذا الشبيه على ما يريد[10].

ومن أبرز الممارسات السحرية القديمة في هذا المجال وجدناها في المناطق الشمالية الشرقية من بلاد الرافدين، إذ أن هذه المناطق كانت ولا تزال ذات أمطار تكفي كميتها لنمو الزرع، وهذه الناحية قد ساعدت سكان المناطق المذكورة على ممارسة الزراعة الديمية بصورة منتظمة، وإنسان هذه المناطق ما كان يمتلك إمكانية يستطيع أن يواجه بها هذه المشكلة سوى ممارساته السحرية مما اضطر ذلك سكان المناطق المذكورة على اتخاذ المرأة زعيمة للطقوس الدينية والزراعية. وهذا القرار لم يتوصل إليه السكان المذكورين إلا بعد أن اعتمدوا على قانون التشابه السحري، وما دامت المرأة بالنسبة للجنس البشري هي التي تحمل ومن ثم تلد وتسبب التكاثر في المجتمع فقد برز الاعتقاد بأنها لو تتعامل مع الزرع سوف تجعله يعطي محصولا أكثر مما لو يتعامل معه الرجل[11]. والشواهد الأثرية التي كشفت عنها التنقيبات الأثرية في المناطق الزراعية الديمية قد أكدت هذه الحقيقة.

أن هذا الاعتقاد لم يظهر في المناطق الديمية من بلاد الرافدين فقط وإنما شمل أجزاء واسعة من العالم، فالمعلومات المتوفرة لدينا، والتي دونها السير جيمس فريزر في مخطوطته، ذكرت أن أحد المبشرين الإسبان قد ذهب إلى إحدى قرى "البيرو" للتبشير بالديانة المسيحية هناك، وان بساطة وطيبة سكان هذه القرية قد سهلت على هذا المبشر مهمته، حيث كانوا ينفذون كل ما يطلبه منهم، ما عدا ناحية واحدة لم ترضه، وهي: أن رجال هذه القرية كانوا يجلسون في أماكن الراحة واللهو ويتركون نسائهم وأطفالهن على ظهورهن يعملن في الحقول الزراعية وتحت شمس الصيف المحرقة، وكان هذا المبشر يعارض هذا السلوك ويطلب من الرجال الذهاب إلى الحقول والقيام بالأعمال الزراعية ليفسحوا المجال اللازم للنساء وأطفالهن للتخلص من عناء العمل والابتعاد عن حرارة الشمس اللافحة، غير أن الرجال لم يستجيبوا

لطلبه ولم تؤيده النساء أيضا فيما كان يدعو إليه، وبعد أن أنهى هذا المبشر المدة التي كانت مقررة له وحان موعد الرحيل ذهب إلى شيخ القرية ليشكره وقال له في أثناء الحديث: إنكم أناس طيبون وقد ارتحت معكم، ولكنكم تمتلكون عادة سيئة لم أتمكن من إزالتها عنكم، وهي أنكم ترسلون نسائكم وأطفالهن على ظهورهن يعملن في الحقول تحت الشمس المحرقة ولا تكلفون رجالكم بهذه المهمة... عندها أجاب شيخ القرية: "أبونا كذلك أنت إنسان طيب، ولكن عليك أن تبتعد عن الأشياء التي لا تفهمها، فالمرأة التي تحمل ومن ثم تلد وتسبب التكاثر بين البشر هي بالتالي إن تعاملت مع الزرع فسوف تجعله يعطي غلة أكثر مما لو تعامل معه الرجل، فكيف تطلب منا أن نبدل النساء بالرجال"[12].

وهذا الأسلوب في عدم عمل المرأة بالزراعة في أراضي وادي النيل هو ان اراضي وادي النيل الزراعية لم تعاني عبر تاريخها الطويل الشحة في الخصوبة كما كان يحدث في المناطق الديمية في العراق وفي أجزاء أخرى واسعة من العالم القديم، ولهذا السبب بالذات لم تكن بلاد وادي النيل بحاجة إلى استخدام المرأة لأغراض زيادة خصوبة الأراضي الزراعية.

واعتمادا على ما سبق، يمكننا أن نفترض بان سكان حضارة وادي النيل قد استخدموا المرأة أيضا بخصوص خطر المجاعة الذي كان يتهدد بلادهم عندما لا يرتفع منسوب مياه الفيضان. ومادامت الكتابات المصرية القديمة لم توضح لنا ما هي الإجراءات التي كان يمارسها المصريون تجاه الخطر المذكور فليس أمامنا سوى الاعتماد على ما كان يسمى بطقس "عروسة النيل"، المتمثل برمي فتاة شابة جميلة إلى النهر المذكور كزوجة له يمكن من خلالها اعطاء الفيض الكافي[13]. وبالتأكيد كانوا يهدفون من ممارسة هذا الطقس مساعدة نهر النيل حسب القانون السحري الذي أطلقنا عليه تسمية "قانون التشابه" بهدف إعطاء الفيض الكافي.

هذا ومن الممارسات السحرية الشائعة الاستعمال في حضارات وطننا العربي هي تلك العادة التي نقوم فيها برمي كمية من الماء خلف المسافر عند خروجه مباشرة من البيت قاصدا المكان الذي ينوي السفر إليه، وعند سؤال الناس المتعاملين مع هذه العادة ذات الأصول السحرية عن الهدف من وراءها يجيبون على الفور بان الماء خير، وهذا ما يساعد المسافر على العودة سالما، بينما الحقيقة هي أن المسافرين قديما من مكان إلى آخر وبالأخص في الأماكن التي تحتوي على الأراضي القاحلة والصحراوية قد يواجه خطر شحة الماء، بحيث أن الكثير من المسافرين ماتوا عطشا، وعملية سكب الماء عند خروج المسافرين من البيت، أي عندما يضع أولى خطواته على طريق السفر، يعني ذلك بان رامي الماء يتمنى للمسافر أن يجد الماء في أثناء سفرته بالوفرة نفسها التي واجهت فيها خطوته الأولى على طريق السفر، وإذا توفر الماء للمسافر أثناء سفره فسوف يصل سالما دون الخوف عليه من مواجهة العطش.

اما المشاهد الحية التي نقلها لنا صاحب كتاب "الغصن الذهبي" عن الشعوب الافريقية، فانها تتمثل في بعض العادات الخاصة بالصيادين وتحسبهم من سوء الطالع المرتبط بوقت معين، فهناك عدد ليس بالقليل من الصيادين المتواجدين في مناطق شرق افريقيا، يعتقدون ان خيانة الزوجة لزوجها الصياد عند غيابه، يزود الفيل بقوة هائلة تمكنه من صرع الصياد او جرحه على اقل تقدير، لذلك اذا ما تعرض احد الصيادين للخطر فانه يرجع الى قبيلته، واذا ما هاجم اسد صيادا من قبيلة "الواجوجو" (wgogo) فانه يردّ ذلك الى سلوك زوجته التي تركها في القرية فيرجع غاضبا، اما سلوك المرأة المرتبط بخوفها مما سيحدث لزوجها في غيابها، فانها بمجرد خروج زوجها للصيد تتحاشى مرور رجل من خلفها او ان يقف امامها او ان تسمح لنفسها بالوقوف معه، حتى انها اذا ما ارادت النوم فإنها تختار النوم على وجهها.[14]

واما ما نجده عند قبائل "الكافير" في "سوفالا"(safala) شرق افريقيا، فانه مختلف عن سلوك الصيادين لكنه يصب في المعنى نفسه الخاص بالسحر التشاكلي، اذ يخاف مقاتلوا القبيلة اشد الخوف اذا ما ضربهم شخص ما بشيء مجوف من الداخل كأن يكون عصا من القصب او القش، ويفضلون ان يضربوا بقضيب من الحديد، وذلك لاعتقادهم ان العصا المجوفة فيما لو ظرب بها شخص ما فانها سوف تتسبب في وصول الضربة وتأثيرها الى داخل جوف الانسان.[15]

أما ما يخص دفع الفأل السيء او خداع الاقدار التي تلحق الاذى بالانسان، فانه يمكن تجنب ذلك بالسحر التشاكلي أيضا، لدى بعض سكان افريقيا ممن تعرض لذكرهم "فريزر" في مخطوطته، ففي "مدغشقر" عندما يولد لعائلة طفل خلال شهر نوفمبر، حيث تهطل الامطار بغزارة، بحيث سمي هذا الشهر لديهم بـ "شهر الدموع" يعتقدون ان هذا الطفل ولد وفي حياته الأسى والحزن والدموع، ولكي تنقشع الغيوم التي تتلبد فوق مستقبل الطفل وحياته، فان عليه ان يرفع بيديه غطاء عن اناء فيه ماء مغلي، وان يحركه حول جسمه حتى تسقط القطرات من الغطاء ايذانا بسقوط الدموع التي كان مقدرا لها ان تنهمر من عينيه عندما يكبر.[16]

وقبل الانتقال إلى النوع الثاني من الممارسات السحرية نشير إلى أن واقع الحال يؤكد بان الممارسات سابقة الذكر لا ينطبق عليها حقا مبدأ العلل المتشابهة تنتج عنها نتائج متشابهة، فسكب الماء للمسافر عند وضع أولى خطواته على طريق السفر ليس بإمكانها أن توفر له الماء اللازم لإدامة حياته، وعمل دمية للشيء الذي يريد الإنسان معاملته المعاملة المطلوبة لا توفر لصانع هذه الدمية إمكانية الحصول من الشخص الذي تصوره الدمية ما يريده منه. ولكن الفائدة الوحيدة التي يمكن أن تقدمها الممارسة السحرية للأشخاص القائمين بها تتمثل بالناحية النفسية، حيث أنها تخدم ممارسها من الناحية النفسية فقط. لان أكثر من

70% من مشاكل البشر هي مشاكل مبعثها الجانب النفسي، ولهذا السبب فان الممارسات السحرية قد عالجت ما يزيد على اكثر من نصف المشاكل التي يعاني منها البشر في حياتهم.

ثانيا- قانون الاتصال أو السحر الاتصالي:

ويستند هذا القانون على قاعدة تختلف عن قاعدة قانون التشابه وخلاصتها أن الأشياء التي كانت متصلة في زمن ما، فأنه رغم الانفصال الذي يحصل بينها يبقى تأثير بعضها في البعض الآخر وان للجزء تأثير في الكل كما أن للكل تأثير في الجزء، ولتوضيح ذلك نقول إننا لو أخذنا شعرة من جسم إنسان ما ونعاملها المعاملة التي نريدها فإننا نعتقد بان ما يصيب الشعرة سوف يصيب صاحبها لأن الشعرة كانت متصلة بجسم ذلك الإنسان وهي جزء من كل الجسم. والشيء نفسه مع الأسنان المقلوعة وقلامة الأظافر التي تؤخذ من الانسان، فمعاملتها السلبية أو الايجابية حسب قانون الاتصال سوف تنتقل إلى الجسم الذي تعود إليه.

وهذا القانون لم ينشأ كذلك من الخيال وإنما اعتمد أيضا على ظواهر طبيعية وفي مقدمتها البذور والبيض والأجنة، إذ أن هذه الأشياء الثلاثة كانت جزءاً من الكل الذي تولدت في داخله ومن ثم انفصلت عنه، وبعد الانفصال أخذت تمثل جزءاً من ذلك الكل[17]. وما دام هذا الجزء بإمكانه بعد فترة معينة من إعطاء الكل، فقد نشأ الاعتقاد بان للجزء تأثير في الكل مثلما للكل تأثير في الجزء، فحبة القمح التي تؤخذ من سنبلة على سبيل المثال، سوف تعطي سنبلة إذا ما زرعت بصورة صحيحة، والبيضة الناتجة عن أي حيوان بيّاض بإمكانها إيجاد الحيوان الذي تولدت عنه، وان إتلاف البذرة أو البيضة أو الجنين سوف يمنعنا ذلك من الحصول على الكل الذي أوجد كل واحد منهم، ولهذا يمكننا القول بان العلاقة بين الجزء والكل هي علاقة جدلية، أي بمعنى أن الواحد منا لا يمكنه أن يحصل على البذرة من دون ثمرة ولا الثمرة من دون بذرة.

وبعد مرور آلاف من السنين على الفترة التي ظهرت فيها تلك الممارسات السحرية تناسى الناس الأسباب الحقيقية التي أدت إلى ظهور تلك الممارسات وهذا التناسي قد ساعد على إدخال بعض التغييرات على تلك الممارسات الأولى، إذ أن أقدم الممارسات قد اعتمدت فقط على الأجزاء الحية التي لا يحتاجها الجسم أو أنها تبلى ويطردها تلقائيا مثل الشعر والأسنان والأظافر.[18]

ولا يزال السحرة في الوقت الحاضر يستخدمون أجزاء لا حياة فيها من الإنسان لأغراض قانون الاتصال، كأن يؤخذ منديل أو أية حاجة يستخدمها الشخص المنوي لعمل السحر له، في الوقت الذي ما كان ذلك ممكنا على الإطلاق في الفترات الأولى من ظهور مثل هذه الممارسات السحرية.

والممارسات السحرية المتعلقة بقانون الاتصال ليس في حقيقتها أية علاقة مؤثرة فيما بين الجزء والكل الذي انفصل عنه، أي بمعنى أن معاملة أية شعرة معاملة سيئة أو حسنة، فان تلك المعاملة لا تؤثر إطلاقا في صاحب الشعرة. ولكن مثل هذه الممارسات كانت تدعم الأشخاص المتعاملين معها من الناحية النفسية التي اشرنا إليها سلفاً.

ومن الأمثلة التي كانت لوقت قريب أو لا تزال في المجتمع الأفريقي والمجتمع العربي بصورة عامة، تلك التي نجدها على المستوى الشعبي، والتي تتمثل في أن بعض شعوب أفريقيا كانوا يأخذون الأسنان المنزوعة ويقذفونها من فوق رؤوسهم إلى الخلف وراء ظهورهم ويقولون: "أيها الفأر اعطني سنك الحديدية الصلبة وخذ بدلا منها سني المصنوعة من العظم"[19]، وفي مقولة أخرى متشابهة نجد القول الآتي: "أيها الفأر الكبير، أيها الفأر الصغير، هذه سني القديمة ... خذاها وأعطياني بدلا منها سنا أخرى جديدة".[20] ثم تلقى السن بعد ذلك، فوق سطح البيت المغطى عادة بالقش، حيث تتواجد الفأران في العادة في مثل هذه الأماكن، ويبدو أن اختيار العقل الأفريقي لأسنان الفأر نابع من كونها أقوى الأسنان في نظرهم، في حين أننا نجد في التراث الشعبي العراقي ولحد الآن أن الأسنان اللبنية التي تسقط من فم الأطفال، يذكر لهم أن يقولوا ويفعلوا مثلما قال الإنسان الأفريقي، عندما يرمي السن إلى الخلف أو إلى الأمام صوب الشمس وبعيدا عن نظر الطفل، بيد أن المقولة تختلف بعض الشيء إذ نقول "أيتها الشمس خذي سن الحمار واعطني سن الغزال" وكأن العربي يبحث عن الجمال دون الحاجة إلى القوة والمنعة التي تدور في ذهن الأفريقي. ولا ادري لماذا يُتجنى على الطفل بوصف سنه بسن الحمار؟!

أما ما يتعلق بطالع الإنسان ومستقبل الطفل عند ولادته، فقد وجدنا ذلك في السحر التشاكلي ولا أجد مثالا أكثر دقة ممّا تقوم به أمي والى الآن عندما يولد لها حفيد بان تأخذ الجزء المتروك من الحبل السري (السرة) للرضيع فتدفنه في المستشفى إن كان ذكرا وفي المدرسة إن كانت أنثى، لأنها تريد من الذكر أن يكون طبيبا ومن الأنثى أن تكون مدرسة. ولا أخالني أجد غير ذلك إن بحثت في أفريقيا في جزئها العربي والأفريقي.

المطلب الثاني: جوانب من الممارسات الخاصة بالمعتقدات الدينية والاجتماعية:

ان اغلب المعتقدات الدينية القديمة في أفريقيا ينسبها علماء الفكر الديني الى التقليد ويضعونها في دائرة ما أسموه بالأديان البدائية التي تقوم على السحر والمبالغة في التقديس حيث ينتقى فيها الاستدلال العقلي والمنطقي، وإن البدائيين ينفرون أشد النفور من الاستدلال العقلي، كما يلاحظ أيضا أن هذا النفور لا يرجع إلى قصور أو عجز طبيعي في أدراكهم بل بالأحرى إلى مجموعة من العادات العقلية التي درجوا عليها من خلال طريقتهم في التفكير والتي قامت على أساس التساؤل عن معنى الحياة والوجود والعدم وما بعد الموت، كما عملت

على وجود مظهر طقوسي فرضت به سيطرتها على نواحي الحياة المختلفة لتنتقى ثنائية الحياة والدين فالأشياء كلها مترابطة لأنها تقوم على الشعور العميق بوحدة الحياة ووحدة الأشياء كلها في عالم مقدس.[21] ومن الصعب أن تتخيل المجتمعات الأفريقية القديمة بدون اعتقاد في أي من أنواع الأرواح التي تساعد أو تعوق أعمالهم راضين بالسحر التمثيلي سلوكا وطريقا للتعبير عن ذلك الاعتقاد في أنواع القوى والطاقات الخارقة للطبيعة ويظهر التطبيق للمفاهيم الدينية والسحرية في القناع حيث يمثل مكان الروح، التي يعتقد فيها الأفريقى على اختلاف أنواعها من أرواح للقوى الطبيعية (كالأرض، والضوء، والبرق، والشمس، والقمر ...الخ) أو ارواح لمؤسس القبيلة والجدود، أو أعضاء القبيلة "فالأرواح هي تجسيد، وتشخيص للقوى التي يخشاها ويخافها، ولا يستطيع أن يدركها أو يصل إلى مستواها، لذا فهو يجسدها في صورة شبه إنسانية".[22] ولا يختلف هذا المفهوم عن فكرة خوف الإنسان في عصور ما قبل التاريخ، من أشياء ليس بمقدوره فهمها، فكان عليه أن يجسدها على شكل آلهة مثل النجوم والرياح والمطر والشمس والقمر....الخ.[23]

ومن هذا المفهوم يتضح تحديد وتشخيص القوى غير المعلومة لدى الأفريقي والرافديني وأن الأعمال الفنية لديه، إنما هي أداة ووسيلة، لإشباع حاجاته النفسية وعلى هذا الأساس نشأ المفهوم الاعتقادي الخاص بجوانب من الحياة الاجتماعية والدينية في معتقد الإنسان وعاداته وأعرافه. وخير مثال يمكن من خلاله التعرف على اهم الممارسات الدينية والاجتماعية هي الاساطير والقصص والروايات الشفاهية وبعض الممارسات الباقية الى يومنا هذا، وفي ما يلي اهم الافكار الخاصة بهذه المعتقدات التي ترتبط بشكل او بآخر بثقافة حضارة وادي الرافدين والتي حاولت رصدها للدلالة على متانة الترابط وعمق الصلة بين الشعوب الافريقية في القارة السمراء ونظيراتها من الشعوب العربية في القارة الآسيوية التي اخترنا من بينها، حضارة من اعرق حضارات الشرق الأدنى القديم.

أولا: خلق الإنسان من طين:

تنتشر بين قبائل "الشلوك"(Shlook) التي تسكن النيل الأبيض، أسطورة خلق الإنسان من طين، وتفسر الأسطورة بطريقة بارعة اختلاف ألوان البشر المخلوقين من الطين بموجب لون التراب الذي صنعهم الإله منه، فالإله الخالق "جووك"(Jook) عزم على خلق البشر فتجول في انحاء العالم، وعند مكان تواجد الجنس الابيض البشرة وجد طينا ابيضا (تراب) نقي فصنع منه الانسان ذا البشرة البيضاء،وعندما وصل الى مصر، شكّل من طمى الطين في النيل، الناس ذوي البشرة البنية، وعندما وصل الى ارض "الشلوك" وجد فيها تربة سوداء فشكّل منها الناس ذوي البشرة السوداء.[24]

وهذا الامر الخاص بخلق الانسان من طين يكاد يكون متطابقا تماما حتى مع المفهوم اللغوي لكلمة طين في اللغة العربية، فالمدلول اللغوي للطين هو التراب المختلط بالماء ،ويسمى بذلك وإن زالت عنه رطوبة الماء، ومن معاني الطين الوحل وجمعه اطيان [25]. والطينة القطعة من الطين وتستخدم مجازا للدلالة على الخلقة والجبلة فيقال فلان من الطينة الاولى، وطينة الرجل: خلقته واصله، والطيّان، صانع الطين، وحرفته الطيانة.[26]

وبالمقابل نجد في التراث والثقافة الإفريقية لدى قبيلة "الفانيون"(Fanyon) الذين يسكنون في غرب القارة، ويعتقدون ان الله خلق الانسان على شكل "سحلية" من الطين ثم وضعها في حوض فيه ماء لمدة سبعة ايام، ثم قال له اخرج من الماء، فخرج على هيئة انسان. وبنفس المفهوم الخاص بخلق الإنسان من طين، كانت قبائل غرب إفريقيا والقاطنة في "توجولاند"(Togoland)، والتي تنتمي إلى الزنوج وتنتشر الآن في جمهورية "تنجو"، نجد انها تعتقد وإلى وقت قريب، ان الله يخلق الانسان من الطين، فاذا تبقى قليل من الماء الذي فيه تراب سكبه على الارض وخلق منه الاشرار والعصاة من الناس، اما الانسان الصالح فانه يخلق من طينة جيدة، وتعتقد القبائل المذكورة ان الله خلق الرجل ثم خلق المرأة.[27]

وفي الفكر الرافديني القديم،[28] نجد ان كلمة الطين ارتبطت بالفكر العراقي القديم منذ بواكير النضوج الحضاري على هذه الارض ـ الالف الرابع قبل الميلاد ـ وانعكس ذلك بشكل واضح فيما ورد في الملاحم والاساطير الدينية، ومن اولى المفاهيم التي كانت تشغل الفكر هو خلق الانسان واصل الوجود.[29] وقد عدّ العراقيون القدماء الطين المادة الاولى التي خلق منها الانسان ويمثل هذا الاعتقاد صدى للدعوات التوحيدية والرسالات السماوية التي جاء بها الانبياء والرسل من عهد نوح (عليه السلام) ومن جاء بعده وبقيت تلك الدعوات عالقة في اذهان الاجيال اللاحقة.

وخلف لنا البابليون، الذين اسهموا بنصيب وافر في بناء حضارة بلاد الرافدين، اطول قطعة ادبية واشهرها وهي المعروفة بـ "إنوما إلش" (Enuma Elish) التي عرفت بين الباحثين باسم " قصة الخليقة البابلية " وتتحدث عن نظرة البابليين إلى خلق الكون والانسان، [30] وتذكر القصة ان سبب خلق الانسان ليحمل مشقة العمل على الارض واعبائه بدلا من الالهة نفسها فباركت الالهة الفكرة وقررت خلقه من دم احدى الآلهة الممزوج بالطين إذ جيئ بالاله " كنكو " فذبح ومزج دمه بالطين وخلق منه الإنسان،[31] ونجد الأسطر التالية في قصة للإله اينكي (En.ki) يتحدث فيها عن خلق الإنسان من الطين وكيف أن الآلهة هي التي خلقته:

"امزجي لب الطين الموجود في اعلى المياه التي لا يسبر غورها

الصناع المهرة، سيجعلون الطين مختمرا

وانت عليك ان تخلقي له الاضلاع

" ننماخ " اله أم الارض ستعمل من فوقك

آلهة الولادة ستقف إلى جانبك حينما تخلقين

أماه ! قدري مصيره (مصير المولود الجديد)

" ننماخ " ستربط به ... الالهة

كانسان". [32]

ويفهم من خلال ما ورد في نصوص الخليقة ان الطين كان المادة الاساسية لخلق الانسان وان ما تصوره العراقيون في عملية الخلق ما هو الا انعكاس لواقع المجتمع العراقي ومدى تأثر ذلك المجتمع بالدعوات التوحيدية الاولى.

ويؤكد كتاب "العهد القديم"، كتاب اليهود المقدس الذي تؤلف الاسفار الخمسة الاولى منه بقايا التوراة، على لسان الانبياء والرسل السابقين للنبي موسى (عليه السلام)، ان الله سبحانه وتعالى خلق الانسان من طين، [33] وقد وردت اشارات عديدة بهذا الخصوص منها :

"وجبل الرب الاله ادم ترابا من الارض، ونفخ في انفه نسمة حياة. فصار ادم نفسا حية".[34]

وقد فسر اسم ادم بانه من الاديم أي الارض لانه مخلوق من تراب الارض.[35]

"وهكذا فان الله خلق ادم من تراب ونفخ فيه نسمة الحياة فصار ادم نفسا حية".[36]

وفي القران الكريم الذي هو ليس كتابا تاريخيا هدفه سرد القصص والاحداث وبيان تفاصيلها، بل ان ما جاء فيه من اشارات موجزة، انما جاء للعبرة والموعظة ومنها خلق الانسان من طين. [37] فقد ورد ذكر المادة التي خلق منها الانسان بأكثر من صيغة منها الطين والتراب والصلصال اذ ورد ذكر الطين في الآيات الكريمة الاتية :

﴿ هُوَ ٱلَّذِى خَلَقَكُم مِّن طِينٍ ثُمَّ قَضَىٰٓ أَجَلًا ﴾.[38]

﴿ وَلَقَدْ خَلَقْنَا ٱلْإِنسَٰنَ مِن سُلَٰلَةٍ مِّن طِينٍ ﴾.[39]

﴿ ٱلَّذِىٓ أَحْسَنَ كُلَّ شَىْءٍ خَلَقَهُۥ ۖ وَبَدَأَ خَلْقَ ٱلْإِنسَٰنِ مِن طِينٍ ﴾.[40]

﴿ إِنَّا خَلَقْنَٰهُم مِّن طِينٍ لَّازِبٍۭ ﴾.[41]

يلاحظ في جميع الاشارات الواردة ان الكلمة المستخدمة للإشارة الى المادة الاولى التي خلق منها الانسان هي الطين او التراب في التوراة، تماما كما هي في المصادر المسمارية الا انها

تختلف في القران الكريم اذ وردت اكثر من كلمة للدلالة على المادة التي خلق منها الانسان وان كانت جميعها تؤدي المعنى نفسه.

ان ما يلفت الانتباه ان جميع القصص ذات العلاقة بخلق الانسان من الطين والوارد ذكرها في المصادر الثلاثة المسمارية والعهد القديم والقران الكريم متشابهة في الخطوط العامة والأساسية وهذا لم يكن مصادفة بل ان ذلك يؤكد تتابع الرسالات السماوية وبعث الانبياء والرسل ومعرفة الناس بقصة خلق الانسان من طين، الا ان الافكار السائدة التي كانت قد ابتعدت عن التوحيد اضافت اليها فيما بعد القصة عما ورد في القران الكريم وان ما ورد في المصادر المسمارية والعهد القديم طرأ عليها اضافات وتحريفات عبر العصور الطويلة التي مرت عليها حتى وجدت طريقها الى التدوين فابتعدت تدرجيا عن اصولها التاريخية وجاءت وقد اكتنفها الخيال والاسطورة وتمحورت حول معتقدات القوم الدينية وقت تدوينها وكادت صلتها تنقطع عن اصولها الاولى في حين حفظ لنا القران الكريم بإيجاز شديد الصورة الحقيقية لتلك القصص[42].

ثانيا: فكرة الموت والخلود:

تربط قبائل "الناماكوا"(namakwa) او "الهوتنتوت"(hotntoot) بين ولادة القمر في اول الشهر وغيابه عند دخوله المحاق في آخر الشهر والتي تحدث بشكل مستمر مع فكرة البعث والموت اي ان فترة محاق القمر ثم بزوغه هي بمثابة موته وميلاده. ومع ترسخ هذه الفكرة في اذهان القبائل المذكورة، فقد اصبح القمر صديقا حميما للإنسان، وهو كذلك فعلا خاصة عند القبائل التي تقطن الصحاري المكشوفة كونه ينير لهم عتمة الليل ويجنبهم حر الشمس الملتهبة وما يعانوه من حرارة في فصل الصيف.[43] ولان الصديق يبوح بأسراره لصديقه فقد اراد القمر ان يفشي سر موته وبعثه للإنسان، واختار الارنب لان يبلغ الرسالة لبني البشر، لكن الارنب قلب المفهوم عندما قال على لسان القمر"كما انني اموت ولا اعود الى الحياة مرة اخرى، فإنكم كذلك ستموتون ولاتعودون الى الحياة مرة اخرى".[44]

وعندما رأى القمر الارنب مرة اخرى، طلب منه ان يعيد ما قاله للناس على لسانه، عرف القمر انه حرّف الرسالة، فضربه القمر بعصى شقت شفتيه، ولاتزال قبائل "الناماكوا" غاضبة من الارنب لأنه سلبهم الخلود على حد اعتقادهم، كما انهم لا يأكلون لحم الارانب، واذا ما خالف شخص منهم وعرفوا انه اكل لحم الارنب فانه يبعد من القبيلة.

وفكرة البعث والموت هذه وارتباطها بالقمر نجدها ايضا عند قبائل "البوشمان" (poshman) لكنها تعتقد في اساطيرها ان القمر قد ابلغهم الرسالة بمضمونها الصحيح، لكن شخصا لم يصدق قول القمر وبدأً يناقش الامر مع القمر عندما توفيت والدته امام

ناضريه في حين كان القمر يخبره أن أمه نائمة وان موتها مؤقت ليس الا ، لكنه اصر على موتها ، فضربه القمر وشق شفتيه ومسخه على شكل حيوان هو الارنب.[45]

ان فكرة الموت والبعث في الفكر الرافديني القديم يجسدها اله القمر ايضا والذي يأتي في الدرجة الثالثة من بعد السماء والهواء، وفيما يخص اختفاء القمر في نهاية كل شهر فقد عدّ هذا الاختفاء بمثابة موت مؤقت ليعقبه بايام ولادة جديدة وحياة اخرى بعد الموت المؤقت، حيث وردت اشارات عديدة تخص ايام الاختفاء حددت في اليوم السادس والعشرين والسابع والعشرين والثامن والعشرين، وكان على المتعبدين ومن بينهم ملك البلاد ان يمتنعوا عن تقديم الصلوات والادعية للقمر في هذه الايام لأنه في حالة اختفاء،[46] اما في اليوم الثلاثين من الشهر فقد خصص لتقديم القرابين الى معبد اله القمر والتضرع والدعاء له لكي يعود ويظهر ثانية ،وعند ولادة القمر او بعثه من جديد فان ذلك يعتبر عيدا رسميا خصص اليوم الاول من كل شهر للاحتفال به وقد اطلقوا على هذا العيد اسم "ايش – ايش" (esh -esh)، والمعلومات المتوفرة عن الاحتفال بهذا العيد قد بدأت مع تكّون الحضارة خلال العصور التاريخية وقيام الممالك والدول في العراق القديم انه في بداية الألف الثالث قبل الميلاد ، إذ تم تحديد يوم واحد لهذا العيد ،[47] بينما خصصت حكومة بابل في آخر عهود العراق السياسية في القرن السادس قبل الميلاد ، ثمانية ايام للاحتفال بمولد القمر وبعثه للحياة من جديد ،[48] وذلك لان الاقوام القادمة من الجزيرة والتي استوطنت في بابل او التي استقرت في اعالي الفرات، اعطت القمر مكانة مرموقة اكثر من باقي مجتمعات بلاد الرافدين لكونه صديق سكان الصحراء في الجزيرة العربية مثلما هو صديق لسكان الصحراء الذين حاول القمر منحهم الخلود في افريقيا السمراء.

ثالثا: أسطورة الطوفان:

عن اسطورة الطوفان نجد في الاساطير الافريقية وتحديدا لدى قبيلة "ماساي" (masaiy) التي تقطن احدى ولايات جنوب افريقيا ، اذ تذكر في اساطيرها ان رجلا مستقيما اسمه "تومباينوت" تزوج من امرأة تدعى "نايباندى" وولدت له ثلاث اولاد ، ثم تزوج من أرملة اخيه التي تدعى "ناهابا- لوجوينجا" وولدت له ثلاثة ابناء ايضا. وبعد ان كثر الفساد في الارض وفي قبيلته بالذات قررت الالهة ان تهلك الجنس البشري ماعدا "تومباينوت" فاشفقت الآلهة عليه وامرته ان يبني فلكا من الخشب وان يركبه هو وزوجاته واولاده الستة وان ياخذ معه عددا من الحيوانات من كل صنف، وبعد ان بدء الطوفان وركب الجميع في السفينة، وسقط المطر بغزارة حتى اصبح الطوفان محققا وشاملا لكل الارض، اثر ذلك بدأ المطر يخف، الى ان توقف، فارسل "تومباينوت" حمامة لتتحقق من انحسار الماء وظهور اليابسة من جديد ، فعادت اليه منهكة ، ثم اطلق النسر بعد ان ربط بذيله رمحا ، ثم بعد برهة من الوقت عاد النسر

وعرف ان النسر قد حط على اليابسة وانه اكل من جيفة شمّ رائحتها في الرمح. وبعد ذلك ادرك "تومباينوت" ان الطوفان قد انحسر فرست سفينته على ارض البراري ونزل الركاب.[49]

وفي رواية اخرى مشابهة لقصة الطوفان السابقة، حكاها احد المبشرين في افريقيا بمنطقة "سايسى" (saysa) عند نهر "مومبا" وعلى مقربة من بحيرة "روكوا" ذكر الراوي للمبشر انه سمعها من جده، وفحوى القصة لا تختلف عن سابقتها، الا في التأكيد على ان رجل الطوفان قد حمل معه في السفينة كل انواع الحبوب وكل صنف من الحيوانات، الذكر منه والانثى . وعندما حدث الطوفان وغرقت الجبال هلك من بقي على الارض من الحيوانات والناس جميعا.[50]

وفي المقابل نجد قصة الطوفان قد حدثت في ارض الرافدين وما ضمته في مصادرها المسمارية عن اخبار الطوفان التي وردت مدونة باللغة السومرية والاكدية وهي اقدم قصة عن الطوفان معروفة حتى الان، وهذا ما عكسته الرقم الطينية التي دونت عليها اخبار الطوفان، ومن المعروف ان النص قد دون بعد الاف السنين من وقت حدوث الفيضان،اذ يذكر الملك "جلجامش " في ملحمته الشهيرة والتي حملت اسمه ان الطوفان قد حدث قبله بكثير وان القصة سمعها من جده " اوتونابشتم" الذي حكى له قصة الطوفان، ومن المعروف ان تاريخ حكم الملك "جلجامش" حاكم مدينة الوركاء كان في حدود 2700 ق.م ثم حدث وان حذف منها واضيف اليها الشيء الكثير بما ينسجم وافكار القوم، على مر العصور وباختلاف الالسن، الا ان الخطوط الرئيسة ظلت واضحة فيها رغم انتشارها في اصقاع الدنيا الكبيرة والبعيدة عن ارض الرافدين.

اذ نجد في احداث قصة الطوفان الرافدينية ان بطل القصة اسمه "اوتو- نابشتم" (utu-napishtim) والذي يعني اسمه الذي منح الحياة من قبل الاله". وقد وردت الاحداث مدونه على رقم طيني لكاتب بابلي، وتكررت القصة في اكثر من عصر وعلى يد اكثر من كاتب، اذ يقول الكاتب البابلي واصفا بداية الطوفان: "رعد يشق عنان السماء، اعاصير مدمرة تعصف وتزمجر، مثل "نهيق حمار الوحش"، فيضان عارم تخور مياهه مثلما "يخور الثور"، ظلام حالك ودمار في كل مكان، حتى ان الالهة نفسها تراجعت مذعورة الى اقصى السماوات".[51]

ومن الجدير بالذكر ان الوصف اعلاه يتطابق مع ما جاء في وصف الطوفان في الاساطير الافريقية، كما تتطابق اغلب المعلومات الاخرى ومنها على سبيل المثال ان رجل الطوفان "اوتونابشتم" قد امره الاله ان يحمل في السفينة بذرة كل المخلوقات الحية، واستمرت الحال على هذا المنوال سبعة ايام وسبع ليالي، حتى جاء الطوفان على كل من في الارض من البشر والحيوانات الا من كان على ظهر السفينة.[52] ثم استقرت السفينة على جبل، وقبل ذلك

ارسل رجل الطوفان ليستقصي عن انحسار المياه وانتهاء الطوفان، من خلال ارساله لأنواع من الطيور فان وجدت مهبطا لن تعود وان لم تجد فإنها ستعود للسفينة حتما، واول هذه الطيور الحمامة، كما في الرواية الافريقية تماما، ثم اخيرا اطلق اوتونابشتم الغراب، وعندما رأى الغراب ان المياه انحسرت اكل وحام ونعق ولم يرجع [53]، بينما ذكرت الاسطورة الافريقية ان"تومباينوت" ارسل نسرا فأكل وايقن الرجل ان الطوفان قد انحسر بهذه الدلالة.

ان الادلة الاثرية المادية والكتابية عن حدوث الطوفان تتابع تترى، ولعل السير "جيمس فريزر" الذي الف مخطوطته التي بين ايدينا منذ حوالي قرن من الزمن (1918) رغم حداثة التأريخ القريب بالنسبة الينا والبعيد جدا عن تاريخ احداث الطوفان، يفيدنا في حقيقة تاريخية واقعية يرويها لنا صاحب المخطوطة الذي عاش مابين (1854 - 1941) يؤكد فيها اخبار الطوفان ومكان رسو السفينة اذ يقول:

"اما الفلك الذي استقر عند جبال "أرمينيا" فلايزال جزء منه مطروحا على هذه الجبال حتى اليوم، وما زال بعض الناس يزيلون عنه القار ويستخدمونه في تعاويذهم ".[54]

رابعا: شعائر عقد معاهدات السلام:

بعض العادات والتقاليد والأعراف التي كانت تتبعها بعض القبائل في افريقيا فيما يخص عقد الصلح او معاهدات السلام، تتشابه الى حد ما مع شعائر الآشوريين،[55] اذ تطلعنا الروايات ان زعيم قبيلة "بارولونج" اذا اراد ان يعقد حلفا مع قبيلة اخرى، فإنهم يأخذون معدة ثور ويبقرونها، ثم يزحف الزعيمان من خلال فتحة المعدة واحدا تلو الاخر، بعدها يعلنان انهما اصبحا واحدا، وتتبع قبيلة "بتستوانا" النهج نفسه فيما اذا عقدت حلفا مع قبيلة اخرى حيث يعمدون الى ذبح حيوان ويمسك الطرفان المتعاهدان ببعض اجزاء امعاء ذلك الحيوان، ويقسمان على التعاهد، ويذكر "السير فريزر" انه شهد مثل هذا التقليد بقوله "اقيمت مثل هذه الشعائر عندما كنت في قبيلة "شوشنج".[56]

ان التفسير المنطقي لهذه الشعيرة، هو ان الجزاء الذي يصيب من يرجع عن عهده، بأن يقطع مثل الذبيحة وان مصيره هو القتل لامحالة، ومن بين ذلك نجد اقوالا عند قبائل مثل "الواتشاجا" والتي تصّرح اثناء تأدية شعائر الصلح بالقول:"لكي لانشق الى نصفين كما يشق ذلك الجدي" والشيء نفس تقوله قبيلة "ناندي" اذ تذبح كلبا وتشطره الى نصفين وتقول "ليقتل من ينقظ العهد مثل هذا الكلب"،[57] اما قبائل "الاومبيون" وهم شعب كان يسكن دلتا نهر النيجر، فقد عرف عنهم انهم يجلبون شاة بحضور الكاهن ويشقونها الى نصفين ويقولون "ليشق جسد من يشن الحرب على القبيلة الاخرى كما يشق جسد الشاة".[58]

أما عند الاشوريين فان مغزى ودلالة ما ذكرناه سابقا لدى بعض القبائل الافريقية وجدناه مدونا على الرقم الطينية منذ اكثر من اربعة آلاف عام، اذ اشارت الكتابات المسمارية الى ان ابرام المعاهدات كان يرافقها بعض الطقوس والمراسيم، لإضفاء نوع من القدسية على الاتفاق، ومن المتوقع ان تكون هذه الطقوس عبارة عن اعمال يقوم بها المتعاهدين من الملوك او من ينوب عنهما تتعلق بذبح حيوان كأن يكون كبشا او القيام بحركات رمزية تتمثل بمسك رداء الملك القوي او لمس الحنجرة،[59] ومثل هذه الحركات والاعمال وجدناها في محل استعراضنا لعادات بعض القبائل الافريقية في وقت سن المعاهدات، اما في بلاد الرافدين فلنا في المعاهدة التي عقدها الملك الاشوري "آشور نراري الخامس" (754- 745 ق.م) مع الحاكم "ماتع- ايلو" امير مدينة "أرواد" على الساحل السوري وخير شاهد ودليل. وتعد المعاهدة من اقدم المعاهدات التي وصلتنا بصيغتها الاصلية،[60] إذ يرد في النص ان كبشا قد ذبح بالمناسبة ويحدد النص بالقول:

" ان هذا الكبش لم يؤخذ من القطيع بقصد تقديمه للتضحية ولا من اجل الالهة عشتار، انما احظر لكي يقسم "ماتع- ايلو" على ولائه للملك "آشور نراري الخامس"، فاذا حنث بيمينه فان مصيره سيكون كمصير هذا الكبش"،[61] ثم يعدد النص اجزاء الكبش ويذكر ان هذا الجزء من الكبش كان يكون اليد او الساق او الكتف، ليس جزء يعود الى الكبش بل انه لـ "مانع- ايلو".ويختم الملك الاشوري النص بالطلب من الاله "سين" اله القمر ان يبتلي حاكم مدينة ارواد وشعبه وابناءه وموظفيه اذا ما حنثوا بالاتفاق بالآتي:

"فعسى ان يكسوا الاله سين، ....، ماتع – ايلو وابناءه وموظفيه وشعب بلاده بالجذام كالرداء يغطي اجسامهم فيهيموا على اوجههم في العراء وعسى ان لا يرحمهم...."[62].

الخاتمة:

اذا صرفنا النظر عن اهمية هذه الاساطير في حد ذاتها بوصفها سجلا للحوادث والكوارث التي قضت على الجنس البشري كله على وجه التقريب. فانها لا تزال تستحق الدراسة لاحتوائها على سؤال عام يناقشه الانثروبولجيون مناقشة جادة تستحق الدراسة.

والسؤال هو، كيف يمكننا ان نفسر اوجه التشابهات الكثيرة والقوية بين معتقدات الاجناس المختلفة وعاداتها، تلك الاجناس التي تسكن في بقاع مختلفة ومتفرقة متباعدة في انحاء العالم ؟

فهل يرجع ذلك التشابه الى انتقال المعتقدات والعادات من جنس الى جنس بشري آخر، اما عن طريق الاتصال المباشر فيما بينهم او عن طريق الاتصال غير المباشر، او ربما ان لهذه

المؤثرات والمعتقدات المتشابهة نشأه مستقلة عند كثير من الاجناس، نتيجة تماثل الفكر البشري في ظروف فكرية متشابهة ؟

والراي الذي نعتقد به ان كلا الوجهتين قد عملت بقوة، وعلى نطاق واسع لإيجاد هذا التشابه الملحوظ بين عادات الاجناس البشرية المختلفة وتقاليدها، وبتعبير اخر نقول ان كثيرا من وجوه التشابه يمكن ان تفسر من هذه المؤثرات والمعتقدات مع تغير اثناء النقل، او من المحتمل ان وجوه التشابه هذه يمكن ان تفسر انها نشأه مستقلة ونتيجة لتماثل حركة التفكير في العقل البشري.

ومهما تكن النتيجة التي يمكن ان نتوقعها فان المغزى الحقيقي، هو ان الانسان القديم وان قطعّت بين اماكن استيطانه الصحاري والبحار فان عمق الترابط والحوار الثقافي لابد ان يطوي كل هذه المسافات لتحل الالفة والوئام محل التناحر والخصام في حوار جاد وصريح يعيد للأذهان ما كان عليه الاجداد من حس ثقافي متلهف لمعرفة القصص والبطولات مستمدين منها العزم، نحو غد ومستقبل افضل، وما أحوجنا اليوم الى مثل هذا التلاحم في البناء الثقافي والحضاري والذي حاولنا ان نجسده في ورقتنا هذه في زمن ولى وانتهى، بيد ان عبقه لا يزال حاضرا ومحفورا في ذاكرة الاجيال.

الهوامش:

(1) سير جيمس فريزر، *الغصن الذهبي* - دراسة في السحر والدين، النسخة الانجليزية ،ط1، 1922، الترجمة العربية العامة، بإشراف الدكتور احمد أبو زيد ،ط2، ج1،الهيئة العامة لقصور الثقافة، القاهرة 1998. أما ما يخص علم الباراسيكولوجي كمصطلح، فانه يتألف من السابقة "بارا"والتي تعني "خارج نطاق" وكلمة "سيكولوجي" التي تعني علم النفس، ومعنى الكلمة كاملا يكون "ما هو خارج نطاق علم النفس" أو "هو ما لا يخضع لقوانين علم النفس" ومع ذلك فان تسمية هذا العلم لا تزال تحت الدراسة.

(2) احمد جروزا طاهر،أسس تعايش المسلم مع العادات والتقاليد الاجتماعية الإفريقية، جامعة نغوندري، الكاميرون، على الموقع الالكتروني التالي:

http://www.mubarak-inst.org/stud_reas/research_view.php?id=319

(3) نفس المرجع السابق .

(4) انظر في ذلك، بحث كتبه يوري كبيشانف: الحضارات الإفريقية: التشكل والنموّ. إفريقيا: التراث الثقافي والعصر، موسكو، 1985م، ترجمة نوفل عليّ نيوف، مجلة طلبة الدعوة الإسلامية، عدد 8 ،1991م، طرابلس، ليبيا.

(5) الدباغ، تقي، الفكر الديني القديم، ط1، دار الشؤون الثقافية العامة،بغداد، 1992، ص264.

(6) سير جيمس فريزر، الغصن الذهبي، ،الترجمة بإشراف احمد أبو زيد،ج1، الهيئة العامة لقصور الثقافة، ط2، القاهرة ،1998.

(7) الباراسيكولوجي: تتألف الكلمة من السابقة "بارا" والتي تعني "خارج نطاق" ومن كلمة "سيكولوجي"، التي تعني علم النفس، ومعنى الكلمة كاملا ما هو خارج نطاق علم النفس أو "ما هو لا يخضع لقوانين علم النفس" ومع ذلك فان تسمية هذا العلم لا تزال تحت الدراسة.

(8) السير جيمس فريزر، الغصن الذهبي، مصدر سابق، ص 112.

(9) المصدر نفسه، ص 112.

(10) فوزي رشيد، الفكر عبر التاريخ، دار سينا للنشر، القاهرة، 1995، ص28- 30.

(11) المصدر نفسه، ص 30.

(12) سير جيمس فريزر" الغصن الذهبي، مصدر سابق، ص123- 124 .

(13) مختار السويفي، مصر والنيل في أربع كتب عالمية، الدار المصرية اللبنانية، ط2، منقحة، القاهرة 1892، ص36. وهذا الطول يساوي طول الذراع السومري، الذي يساوي (50سم). ينظر: فوزي رشيد، الشرائع العراقية القديمة، ط2، بغداد 1979م، ص35- 43.

(14) سير جيمس فريزر، الغصن الذهبي، مصدر سابق، ص112.

(15) المصدر نفسه، ص131.

(16) المصدر نفسه، ص 141.

(17) فوزي رشيد، الفكر عبر التأريخ، مصدر سابق، ص32- 33.

(18) سير جيمس فريزر، الغصن الذهبي، مصدر سابق، ص142.

(19) المصدر نفسه، ص 146.

(20) المصدر نفسه، ص 146.

(21) عصام محفوظ، الرمز في القناع الأفريقي، نوفمبر 2008، موقع رؤى تشكيلية، على الرابط التالي:

http://essammahfouz.maktoobblog.com/

(22) المصدر نفسه.

(23) لمزيد من المعلومات حول معتقدات إنسان بلاد الرافدين في عصور ما قبل التاريخ وكيف نشأ الدين ينظر: فوزي رشيد، الديانة، حضارة العراق، ج2، دار الحرية للطباعة والنشر، بغداد، 1985.

(24) السير جيمس فريزر، الفلكلور في العهد القديم، ترجمة نبيلة ابراهيم، الهيئة المصرية العامة للكتاب، القاهرة، 1972، ص40.

(25) مصطفى والزيات، ابراهيم واحمد حسن، مجمع اللغة العربية، المعجم الوسيط، جـ2 طهران، ب ت، ص58.

(26) ابن منظور، ابي الفضل جمال الدين محمد بن مكرم، لسان العرب، م13، ط3، بيروت - 1994م، ص270.

(27) السير جيمس فريزر، الفلكلور في العهد القديم، مصدر سابق، ص54.

(28) للاطلاع على معلومات وافيه حول موضوع خلق الانسان من مادة الطين، يمكن مراجعة اطروحة الماجستير للباحثة وسناء حسون يونس حسن الاغا، في فصلها الاول، والمعنونه "الطين في حضارة بلاد الرافدين" والمقدمة إلى مجلس كلية الآداب في جامعة الموصل، في اختصاص التاريخ القديم، الموصل 2004، والتي استفدنا منها كثيرا ونقلنا عنها الكثير من المعلومات الواردة حول الموضوع كما استخدمنا مصادرها التي تناولتها الباحثة المذكور بدقة وامعان.

(29) الدباغ، تقي، الفكر الديني القديم، بغداد، دار الشؤون الثقافية العامة، 1992، ص27 .

(30) Langdon, S.: The Babylonian Epic of Creation, Oxford,1923.

(31) طه باقر وبشير فرنسيس ،الخليقة واصل الوجود، مجلة سومر، م5، جـ1، 1949، ص6 .

(32) كريمر، صمويل نوح : الاساطير السومرية، ترجمة يوسف داؤد عبد القادر، بغداد، 1971، ص114.

(33) كنيت، هاوكنز، مواجهة الاعتراضات في المرشد إلى الكتاب المقدس، بيروت، 1966، ص 45 .

(34) العهد القديم، سفر التكوين 2: 7، في: الكتاب المقدس،ط1، دار الكتاب المقدس، الاصدار الخامس، القاهرة، 2003، ص2.

(35) نخبة من الاساتذة، معجم اللاهوت الكتابي، ط2 ،بيروت- 1988، ص 25 .

(36) محمد قاسم محمد، التناقض في توراخ واحداث التوراة من ادم حتى سبي بابل، قطر، 1992، ص5.

(37) سليمان ،عامر، من القران الكريم الى النصوص المسمارية . قصة الطوفان"، مجلة المجمع العلمي العراقي، جـ1، م45، (بغداد- 1998)، ص37 .

(38) سورة الانعام : الآية 2 .

(39) سورة المؤمنون: الآية 12.

(40) سورة السجدة : الآية 7.

(41) سورة الصافات : الآية 11 .

(42) سليمان ،عامر، من القران الكريم الى النصوص المسمارية، مصدر سابق، ص 36 .

(43) الهيتي، قصي منصور عبدالكريم، عبادة الاله سين (اله القمر) في حضارة بلاد الرافدين، رسالة ماجستير غير منشورة، جامعة بغداد، قسم الاثار، 1995.

(44) السير جيمس فريزر، الفلكلور في العهد القديم، مصدر سابق، ص 55.

(45) المصدر نفسه، ص55.

(46) Langdon S, Babylonian Menologies and the Semitic Calendarsm ,London,1935, p.80

(47) الهيتي، قصي منصور عبدالكريم، مصدر سابق، ص 74- 77.

(48) The Chicago Assyrian Dictionary , Chicago, 1956 ff(=CAD) , E, p.373.

(49) السير جيمس فريزر، الفلكلور في العهد القديم،مصدر سابق، ص202- 203.

(50) المصدر نفسه، ص204.

(51) فاضل عبدالواحد علي، الطوفان،جامعة بغداد، 1975، ص 84.

(52) نفس المصدر، ص 87.

(53) نفس المصدر، ص 94- 96

(54) السير جيمس فريزر، الفلكلور في العهد القديم،مصدر سابق، ص95.

[55] اقوام يرجح انهم استوطنوا في شمال بلاد الرافدين منذ الالف الثالث قبل الميلاد ، وقد قويت شوكتهم مع عصرهم الحديث في الالف الاول قبل الميلا ، للمزيد انظر: طه باقر، مقدمة في تاريخ الحضارات القديمة، ج1، دار البيان، بغداد، 1973، ص 230.

[56] سير جيمس فريزر، الغصن الذهبي، مصدر سابق، ص 239.

[57] المصدر نفسه، ص 240.

[58] المصدر نفسه، ص 241.

[59] عامر سليمان، العراق في التاريخ القديم – موجز التاريخ الحضاري، جامعة الموصل، الموصل، 1993ص 78.

[60] من الجدير بالذكر ان هناك معاهدة اقدم من هذه المعاهدة قد دونت في القرن التاسع قبل الميلاد بين الملك الاشوري "شمشي ادد الخامس" والملك البابلي " مردوخ زاكر شومي" الا ان معظم ما بقي مدون على رقيم المعاهدة تالف مع الاسف ولايمكن ان نفهم منه نص المعاهدة او بنودها ، لمعرفة المزيد ينظر: شعلان كامل اسماعيل، العلاقات الدولية في العصور العراقية القديمة، رسالة ماجستير غير منشورة مقدمة الى مجلس كلية الاداب بجامعة الموصل، 1990، ص 181- 183.

[61] سير جيمس فريزر، الغصن الذهبي، مصدر سابق، ص 242.

[62] عامر سليمان، العراق في التاريخ، مصدر سابق، ص 69.